في مقالتي الماضية وجوه المفاضلة وبينت طرقها ثم ادخلتك الى غرفة واحدة من غرف معرض ابي تمام وصادخلك الى غرفة مشحونة بالوان مختلفة من نفس هذا الصنف ونكتها من معرض البحتري وبعد ذلك افتح لك باب غرفة لهُ أخرى من معرض المتنبي ولا ازيدك على هذا فاختر لنفسك ما يحلو

سعيد الخوري الشرتوني

البقاء (الخلود) (١)

ايها الأدباء اني لا أقصد بهذه المقالة الاَّ مجرَّد البحث والتنقيب عن الحقائق وتنبيه افكار البعض من رفقائي الى اتخاذ البحث في استنباط الحقائق رائدهم والاستقراء والمقابلة مرشدهم والى عدم الاعتصام بحبال الأولى تاهوا عن المحجة الفضلى بان سطروا للناس سفاسف وترهات هي من الحقيقة براء كما جرى لاحدهم اذ كان يدافع عن مذهب داروين ولا اعني ان هذا المذهب وهم على اساس موهوم بل ان المدافع نفسهُ لم يكن يفقه منهُ اكثر مما يفقه بائع الخضر والمرطبات او كما قال احدهم ما كتابات فولتير الاَّ وحي هبط على قلب ذلك النبي فالذين من هذا الصنف في الغالب لا يتقون الى داروين او الى سبنسر او الى بختر لانهم ارضحوا معالم الحقائق بل لاعتقادهم ان ذلك ينيلهم فخرًا عظيمًا وكان الاجدر بهم ان يعتصموا بالحقائق كما تظهر لهم بعد البحث والتأمل الطويل لا كما بدت لهذا او لذاك . نعم ان هذا الموضوع عسر البرهان فلا استطيع ان اقنع بهِ المكابر بالبراهين عنهُ كما اقنعهُ بان اثنين واثنين تعدل اربعة او ان ثقل الرطل عبارة عن جذب الارض لتلك المادة بقوة رطل ولكني استطيع ان اقرب لهُ الاعتقاد بالخلود من وجهٍ عليٍّ . وعليهِ اقول

ان التركيب والتحليل في عمل الطبيعة يعلمانا ان لا فناء في عالم المادة فان الصخور الخاضعة للفواعل الطبيعية من هواء ومطر وثلج وصقيع يتفتت منها اجزاء على غاية الصغر ولا يفقد منها جزء واحد حتى لو هبط الى قعر الوديان او الى اسفل اليمّ العظيم وهذه ترسب في الاماكن الغائرة حيث تتماسك وترجع صخورًا شاهقة تطلع الجوزاء . وان الاصوات على تباين شدتها التي ليست الاَّ اهتزازات في دقائق الاجسام الصائتة غير قابلة للفناء فانك اذا أحدثت صوتًا بوقع اقدامك هنا فتنتقل الاهتزازات الى مايجاورها من اقسام الارض وتتقدم

(١) هذه المقالة تلاها حضرة الاديب علم الندي ابرهيم فريحه في احدى جلسات الجمعية الخطابية العربية في المدرسة الكلية ببيروت

من دقائق الى اخرى وتعود فتراجع دورتها ولا تنتهي الاَّ بانتهاء المادة . ايضاً ان كمية النيغ التي تحرقها فلا يفنى منها جزء حتى ولا جوهر من جواهرها الفردة لانهُ لو امكن لك ان تجمع ما تصاعد من الغازات وما بقي من الرماد ووزنتها جميعاً لوجدت الثقل الاصلي بعينهِ . ونفس الناموس ينطبق برمتهِ على ما يدخل الى جوف الانسان حيث يلحقهُ التغيير النوعي والكمي كما يظهر . وما يدخل الاشجار من الغازات والسوائل والجوامد وما يفور من المياه في قلب الارض الخ . ففي هذه كلها عبرة للمتكرين . كذلك ذرة الهباء ونقطة الماء لا تعرفان فناء ولا تحتشيان انقضاء اجل . والعناصر البسيطة التي تؤلف المركبات (كالاكسوجين والكوربن والصوديوم والكل والذهب الخ) لا يفقد جوهر من جواهرها فاذا غاب احدها من هذا المركب فلا بدَّ من وجوده في المركب الآخر والخلاصة ان العلوم الطبيعية وارباحها يثبتون البقاء بالتجارب والادلة الحسية

لقد أجمع عظماء العقليات (السيكولوجيين) على ان القول في تساوي نهاية الحياة وبداءتها لامر بعيد المتناول يدق على الاذهان ادراكهُ ولكنهم يعتقدون بان القوة التي تسنى لها ان تعطينا الوجود لقدر ان تمنحنا الخلود ايضاً ويعتقد بعضهم ان الفرض من الجسم الحيواني في الانسان هو ان يوصل مشاعر النفس وافكارها وما يصدر عنها بالعالم المادي وبأن النفس تقدر ان تتمَّ عملها بدون تداخل الاجسام المادية وبأن هذه الحياة ليست غاية في ذاتها بل ذريعة الى حياة افضل . ولا لزوم ان اذكر القارئ الكريم باعتقادات شيوخ الفلاسفة مما يتعلق بخلود النفس كسقراط وافلاطون ومن شاكلهما ولي على خلود النفس ادلة بسيطة اوردها بغاية الاختصار

اولاً الميل الطبيعي . خذ الفلاح ذلك المخلوق الساذج واعتبر حياتهُ فانهُ حينما يستغل محصولاتهِ يفرز منها ما يحتاج اليهِ ثم يبدل الباقي بذهب لعلمهِ ان هذا ابقى من الحنطة ثم يبدل الذهب بما هو ابقى منهُ كالفرس حيث هذا لا يسرق ولا يصرف بسهولة ثم يبدل الفرس بالعلم الذي هو ابقى مما ذكر وان ثمارهُ دانية القطوف دائمًا ابداً وجنة النعيم لا تذوي ولا تذبل كبنان الثبات واعتبر ذلك في امر الملبوس فان الانسان ينتقي القماش القوي الباقي ولو كلفهُ مقداراً عظيماً من الدراهم . ولا يغرب عن الافهام ان الاهرام المشهورة والمعاهد الفخيمة التي شادها الاقدمون والكتابات على الصخور والاعمدة والقبور وتلك الاسوار المدهشة والتحنيط والعجائب البيع كلها ادلة دامغة على ان الانسان مدفوع بعامل البداهة الى محبة البقاء . استقر اديان البشر ولاحظ التباين في الاعتقادات وكتب

العبادة واسلوب الصلاة والطقوس والاعياد وكثرة الآلهة يدلّ انهم كلهم يجمعون على ان نهاية هذا الوجود هو الخلود

تأمل الاشجار وجميع انواع الازهار تدرك معنى دقيقاً من معاني الطبيعة الا وهو البقاء فان الاشجار تثمر وتبزر بزراً حتى اذا ما ذوت الشجرة كان لذا غنى عنها بهاتيك البزور . وفي ظهور النسل من الجيل الاول الى الجيل الآخر بحيث تحفظ القوى الخافية والملامح والهيآت والالوان عبرة لذوي الالباب ليظهر مما تقدم بيانهُ ان كل الطبيعة يتمّ بالبقاء وثبوت نواميسها يصرح بعدم الفناء وان الانسان نبيّ ذاتهِ ومعلن اسرار طبيعتهِ ويرى ان اعلان طبيعتهِ في البقاء

ثانياً في ان الحياة الارضية ناقصة . ان من نظر بعين فتادة الى افراد المجتمع الانساني من حيث مراكزهم ومعاملة بعضهم لبعض وسير ذلك بمقياس الحكمة والاعتبار وصل الى نتيجة مرموز عنها بثلاث كليات وهي استبداد . ظلم . محاباة . وغاية ما تنتهيُ هذه الكليات هضم حقوق الضعفاء وامتهانهم وشن الغارة على قليلي العدد واجتياح بلادهم وترقية المداهنين والنظر اليهم بعين الرضى . هذه هي نظرة في سكان القبراء وهذه هي الحقيقة التي اودّ ان استخلصها : ان مجمل البشر من حيث الحقوق والواجبات سواء فلواحد من الحقوق وعليهِ من الواجبات ما للآخر وعليهِ ولما لم يكن يتسنّى ذلك هنا لزم بشرع العدل لهذه الحياة اصلاح اعني بهِ ابقاء

ان من احصى اعمار البشر علم بان قسماً كبيراً منهم يموتون في سن الطفولية او قبل الحلم والرشد فالبصير الحكيم لا بدّ ان يسأل هذا السؤال وهو الا تفتح هذه البراعم في مكان آخر حيث انها قطعت قبل اوانها ؟ لان الغاية من البراعم ان تصير ازهاراً جميلة تعطر بشذاها الارجاء ! واذا كانت الحالة كذلك فهذه الحياة ناقصة والاختلاف الظاهر بين البشر في الصفات والسجايا يدفعنا الى الاعتقاد بالبقاء لتحصل الاصطلاح والمساواة

الانسان يدرك الفضائل في ذهنهِ ادراكاً تاماً ويستعملها مقاييس يقيس عليها فضائل البشر وتراهُ كثيراً ما يقول ان ذلك شحيح يمقتهُ السواد الاعظم من الناس وهذا سريع الغضب كثير المعلب وان محبة ذاك ناقصة مشوهة بالنسبة الى المحبة الكاملة المرسومة في ذهنهِ ولا تفتأ صفات الانسان ناقصة مهما اصلحت بالتربية والانذار لاشارة ان القلب المفعم بالحب لا يكون فيهِ شحيمة ولا غضب ولا حسد ولا دهاء وهذا متعذر على سكان القبراء وهكذا قل في الصداقة فانك ترغب ان يكون صديقك صادقاً لا يبدي اقلّ خشونة يعاملك

كذاتهِ شأن الصديق الكامل ولكن لا تعتم ان ترى منهُ نوراً وصدقاً وشجراناً واحياناً يحقد فتقول ان اخلَّ النكامل ثالث المستحيلات فهذا النقص العام لا بدَّ لهُ من اكمال اذ النكمال نتيجة لازمة لادراك النقص

ثالثاً في معرفة الاسرار وماهيات الحقائق . اجل لقد صدق ذلك الفيلسوف الحكيم القائل اني الآن اعرف بعض المعرفة ولكني اخبراً سأعرف كما عرفت . قال العلاَّمة الاستاذ هكسلي ان الطبيعة تبسط امامنا قضايا كثيرة وتعلب مناحلها فاذا شرعنا نتأملها وجدنا انفسنا اننا من اللادريين . معارف الانسان لا تزال ناقصة وعقلهُ يكتنه الحقائق وماهيتها سنحيَّ فالنقص يبتأ ملازماً لهُ مهما تمجد قريحتهُ على مسَّ التجارب ومهما زادتهُ السنون حنكةً وخبرة

ان معالم الحقائق التي اوضحها العلماء ليست بإزاء المجاهل الشاسعة الاَّ كزهوماء في قلب الصحراء . قال سبنسر قطب دهره ان كنه الحقائق يزداد غموضاً كلما زدنا فيهِ بحثاً فهو كالظلمة الدهماء التي تقصد ان تمزقها بشعاع شمعة ضئيلة . وعلى ما يخيل لي ان حياة العالم الطويلة تنشيء قضايا معضلة اكثر مما تحل فتراهُ يعلل النفس بأملها في المستقبل العاجل . فاذا اعتبرنا ما تقدم بيانهُ وجب الاعتقاد بالخلود لتتمتع النفس بالحقائق التي كانت تجهلها وتدرك كنهها وماهيتها ادراكاً كاملاً

رابعاً الناموس الطبيعي كل شيء في الطبيعة مزدوج الواحد ضد الآخر فهو نور وظلمة راحة وتعب سعادة وشقاء والطبيعة لا تعرف الوجوه بل تعمل بالعدل ولا تخاف لوماً ولا ترهب وعيداً وكأن لسان حالها يخاطب الشمس قائلاً انتِ يا ملكة النور ومصدر الحياة اعلمي بانك لو خرجت عن السبيل المستقيم لاسقطت بك الى قعر الجحيم وهي تنادي كل عمل لا بد لهُ من جزاء وان خفي على الناس فعليَّ لا يخفى حيث اني ارى ما يُرى وما لا يرى . ألا تبصر كيف اذا اغفلتُ خدنيك لقيت هواناً وان ضربت زيداً لزمك القصاص ولا تنسَ انك ستحاسب على افكارك ونياتك كما تحاسب على سليك ونهيك فان المحاسبة على الاثام للاثام والمحاسبة على الافكار للذي يحكم على الاقدار فالواجب لا يترك حقهُ وحكمهُ لا ينفذ الاَّ في محكمة البقاء